د. أحمد السعيد مراد
سامية أحمد

حديث صحفي

عبر الزمن

3

بيلتا طليطلة

خيال علمي لليافعين

دار البشير

مكتبة بيت الحصريات
MAKTABBAH.BLOGSPOT.COM

شربت (حبيبة) جرعة ماءٍ من زمزميتها، وهي تقول لـ (حسام) أثناء راحتهما المدرسية في الفسحة القصيرة:

- هل لابد من شرب الماء الكثير هذا؟ لماذا تصر أمنا على إنهاء الزمزمية كلها قبل عودتنا للمنزل؟

تنهد حسام وقال:

- تقول بأن هذا صحيٌ ويحافظ على سلامة الكُلى، ولابد أن نعتاد عليه.

لوحت حبيبة بيدها وهي لا تملك إلا طاعة والدتها حتى عند عدم قناعتها بذلك، وبينما يلتهمان آخر قضمةٍ من شطائرهما، تقدم (فارس) نحوهما وهو يقول:

- مبارك فوز بحثكما عن حرب أكتوبر على مستوى المحافظة كلها.

رد حسام بفرحة قائلًا:

- شكرا يا فارس!.

تردد فارس وهو يقول:

- عندي بحثٌ صعب مطلوب مني في مسابقةٍ تابعة للمكتبة المجاورة لمنزلي، وأنتما ثبتت براعتكما في كتابة الأبحاث، لم

يعد هناك من يفوز قبلكما، هل من الممكن مساعدتي فيه؟

قالت حبيبة بحماس:

- نعم بالطبع يمكنك مشاركتنا، وجئنا لن يرفض سفرك معنا.

نظر حسام بعتاب نحو أخته التي اندفعت بلا تفكير في الرد، وكادت أن تكشف السر الذي وعدا جدهما بعدم كشفه، وسأل فارس قائلًا:

- عن أي موضوع بحثك هذا؟

- عن الأندلس.

- أعتقد يمكن الحصول على كتب كثيرة عنه من مكتبة المدرسة، وسوف أساعدك في ذلك.

تردد فارس مجددًا وقال:

- لقد قرأت أبحاثكما السابقة، وعرفت سرّ فوزكما؛ لأن بها معلومات دقيقة جدًا، غالبًا لن تكون في كتب الأطفال التي نقرؤها، ومن الواضح أنها بمساعدة جدكما، هل هو الذي يكتب لكما الأبحاث؟

قال حسام بعصبية:

- لا بالطبع، لقد جئنا بالمعلومات كلها بمجهودنا الشخصي،

جدنا أخبرنا فقط عن طريقة الوصول للمعلومات.

- حسنًا، أريد التميز مثلكما بدقة المعلومات هذه، هل ممكن مشاركتكما وسوف أكتب اسميكما معي ونقتسم الجائزة سويًا؟

نظر حسام نحو حبيبة نظرة خاصة اشتعلت فيها الحماسة وقالا:

- لا مانع.

استطردت حبيبة قائلةً:

- سنستأذن جدنا أولًا في زيارتك له، وغدًا نخبرك هل من الممكن أن تأتي معنا أم لا.

وافقهما فارس وانتظر منهما الرد في الغد.

***

كان الجد غاضبًا وهو يقول:

- لقد استأمنتكما على السر، وكان وعدًا ألا تخبرا به مخلوقًا، يبدو أنني كنت مخطئًا في ذلك.

قفزت حبيبة تحتضنه وهي تكاد تبكي وتقول:

- لا يا جدي بالله عليك، أنا بالفعل تسرعت ولكن تحدثت

بتلقائية، لم أتعود المداراة في شيء.

ربت الجد على ظهرها وقبلها وقال لها:

- دائما أرى فيكما ذكاءً كبيرًا وفهمًا جيدًا يسبق عمريكما، هذا السر لو تسرب سيكون الصندوق مهددًا بالفقد، والله أعلم هل يمكن استرداده مرةً أخرى أم لا.

قال حسام بهدوء:

- اطمئن يا جدي، فارس لم ينتبه لكلمة السفر، ولم يفهم معناها، لقد ظنّ أنك تكتب الأبحاث لنا، غدًا سنخبره أنك لم تأذن وينتهي الموضوع، ونعدك أن ننتبه بعد ذلك لكلماتنا.

نطق الجملة الأخيرة وهو ينظر لأخته بلوم، ولم تكن حبيبة في حاجة لهذا اللوم؛ فقد كانت تشعر بتأنيب الضمير بشكلٍ كبير بسبب تسرعها، وقررت فيما بعد أن تفكر جيدًا قبل أن تنطق أي جملة تتعلق بسر الصندوق.

هز الجد رأسه برضا وقال:

- لا عليكما لقد سامحتكما الآن، ولا يصح أن ترفضا طلبه، سنساعده ولكن بطريقة غير التي طلبها.

قبلته حبيبه ممتنةً لعفوه عن خطأها وقالت متسائلةً:

- كيف يا جدي؟

ابتسم الجد وقال:

- ألا تريدان زيارة الأندلس، لقد كانت جنة الله في الأرض ومرحلة ذهبية تعدت ٨٠٠ عام، حتى ضاعت منا منذ ٥٢٠ عام تقريبًا.

قال حسام باهتمام:

- لم أر على الخريطة بلدًا اسمها (الأندلس) يا جدي، أسمع اسمها في التلفاز والمساجد فقط.

- كانت قديمًا شبه جزيرة اسمها (أيبريا)، وبعد فتح المسلمون لها واستقرارهم فيها زمنًا كبيرًا حتى أصبحت تتكلم اللغة العربية أصبح اسمها الأندلس، ولكن الآن هي دولتي أسبانيا والبرتغال.

قالت حبيبة بتساؤل:

- ولكن يا جدي عندما دخل المسلمون لها أليس ذلك احتلالًا، وعندما خرجوا منها أليس هذا تحريرًا للبلد؟

تنهد الجد بقوة وقبل حبيبة لهذا السؤال الهام جدًا وقال:

- قديمًا كان يوجد ما يُسمى بالـ (عبيد)، ويباعون في

الأسواق، وكانت تعاليم الإسلام في كثير من الكفارات "عتق رقبة" أي تحرير أحد العبيد، الآن في عصرنا الحديث هل تسمعين عن أي عبيدٍ أو رقيق في أي مكان في العالم؟

هزت حبيبة رأسها وقالت:

- لا

- لقد تغيرت المفاهيم، ، قديمًا كان ذلك متعارفًا عليه ومقبولًا جدًا من الجميع، والآن لا يقبله ولا يصدقه مخلوق، أخبرني يا حسام هل تعرف كم دامت حروب الفرس والروم؟

قال حسام بحماس:

- دامت ٧٠٠ عام، حتى هزمهما بطلنا الصحابي الجليل خالد بن الوليد.

- رائع، بالفعل الحروب والغزوات كانت مستمرة في شتى بقاع العالم عبر التاريخ الطويل، المنتصر وقتها يكون بطلًا، ويستحق أن يأخذ كل الغنائم ويحكم البلد، وكان هذا هو المتعارف عليه .. أما الآن أصبح مرفوضًا الاعتداء على الدول أو على حدودها ولم يعد مقبولًا ولا مسموحًا به، وهناك مواثيق وقوانين دولية ترسخ ذلك.

قالت حبيبة بحماس:

- فهمت، الآن لا يصلح أن نحكم على الزمن القديم بما هو معروف الآن، ولكن نحكم عليه بما هو معروف وقتها.

ابتسم الجد برضا وقال:

- بالضبط يا حبيبتي، ولكن أحب التذكير بالفرق الذي صنعته الجيوش الإسلامية، فقد كانت كل الجيوش تعيث في الأرض فسادًا؛ تقتل الجميع وتحرق الممتلكات وتنهب الثروات وتظلم أهل البلاد كلهم، أما الجيش الإسلامي كانت أهم تعاليمه ألا يقتل شيخًا ولا طفلًا أو امرأة، بل ولا يقطع شجرة، وما نشر إلا العدل والعلم في كل مكان فتحه.

هتف حسام بحماس قائلًا:

- لقد تحمست جدًا لزيارة الأندلس يا جدي؛ رغبةً في المعرفة.

ضحك الجد قائلًا:

- أيضًا لمساعدة فارس في البحث كما وعدتماه.

هبطت حبيبة عن جواره وهي تقول:

- حسنًا يا جدي هل تسمح لنا الآن؟

بابتسامته الطيبة الحنون أشار لهما، فانطلقا مسرعين نحو الصندوق السحري.

***

- كلمة السر هذه المرة "العدو أمامكم والبحر خلفكم".

ابتسم حسام وهو يقول:

- الحمد لله كلمة سهلة هذه المرة.

- تذكروا مثل كل مرة يجب أن ترددوها سويًا في حال طلب العودة.

قالت حبيبة:

- نذكر ذلك جيدًا، هيا انقلنا إلى أرض الأندلس بسرعة.

وبعد الضوء الشديد الذي لمع بأعينهما مثل كل مرة أثناء سفرهم عبر الزمن بمساعدة صندوق جدهم السحري، شعروا بالدوار المعتاد، واختفى كل شيء، وفجأة وجدو أنفسهم في إحدى الحارات الضيقة!

كان الرائحة سيئة جدًا، وضعت حبيبة يدها على أنفها وهي تنظر لقذارة الحارة والمخلفات تنتشر في كل مكان، والفئران تجري فوقها وقالت بخوف ودهشة:

- ما هذا، لقد قال جدي أن الأندلس كانت جنة، ما هذه القذارة السيئة؟!.

أخذ حسام يتطلع بدهشة للمباني التي يظهر عليها أنها كانت عريقةً وتم بناؤها بهندسة جيدة ولكن جدرانها متسخة جدًا رغم قوتها وقال:

- لا أدري، هل يعقل أن الصندوق نقلنا لمكانٍ خاطيء هذه المرة؟

قبل أن ترد عليه حبيبة ظهر صبيان بملابس رثة ممزقة الأكمام، وعليها الوسخ كذلك، كانا يجريان نحوهما؛ فتوجس حسام من مشهدهما وظنّ أنهما ربما لصان صغيران، وقف أمام أخته وهو يحميها بذراعيه ماذا إياهما نحو الخلف حولها، توقف الصبيان أمامهما ونظرا إليهما بدهشة وقالا كلمة بلغة لا يدريانها، فقال حسام بالعربية الفصحى:

- ماذا تقول؟

اتسعت عينا الصبيين دهشةً، وظهر الرعب على ملامحهما وقال أحدهما بالعربية:

- ما هذا هل تتحدثان العربية علنًا هكذا؟ اصمت قبل أن تلتقطنا إحدى الأعين.

هم حسام أن يرد عليه، ولكن الصبي الآخر قال له بسرعة:

- ما اللغة الأخرى التي تجيدها غير العربية؟

- الإنجليزية.

تذكر انك حملت رواية حديث صحفي عبر الزمن بيلتا طليطلة مجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

تحدث إليه بالإنجليزية وقال:

- أنا جوزيف، اسمي الحقيقي (يوسف)، ولكن احذر ذكر الاسم العربي، وهذا دايفيد واسمه الحقيقي (داوود)، نحن ذاهبان الآن لمشاهدة ما سيحدث عند (بيلتي طليطلة) هل تحبا أن تأتيا معنا؟

لم يعرف حسام وحبيبة معنى كلمة (بيلتي) ولكن وافقا على الذهاب معه، حتى يتحدثان في الطريق ويفهما ما سر هذا الغموض العجيب؛ فالمكان قذر، والأطفال هنا حالهم سيء جدًا، ويتحدثون لغاتٍ أخرى رغم معرفتهم بالعربية!

فهما منه معنى كلمة (بيلتي) هي المعني من كلمة (بيلة) أي

بيلة وبيلة، ولكن عندما قال أنهما تخصان مدينة طليطلة، فقال كلمة بيلتي لينسبهما لها.

سألاه ما هي تلك البيلة أصلًا، وشرح لهما أنها تشبه حوض النافورة؛ فالنافورة في عصرنا الحديث يكون لها حوض أسفلها، ممتليء بهذا الماء، يصعد إلى النافورة ويخرج من أعلاها، ثم يعود إلى الحوض ليقوم بالدوران هكذا بشكلٍ مستمر.

ولكن في مدينة طليطلة، إحدى مدن الأندلس الشهيرة، قام رجل يسمي (عبد الرحمن الزرقال)، كان عبقريًا في الهندسة وعلوم الفلك، صنع ذلك الحوض على شكلٍ زجاجي مستدير يشبه القمر، وكان قريبًا من النهر، وبهذا يأتيه الماء من النهر مباشرةً ليملأه، ولكن الدهشة كانت أن الماء يدخل إلى تلك الكرة الزجاجية بنسبة وشكل القمر في السماء تمامًا؛ عند أول الشهر يكون القمر في السماء على شكل هلال، والماء يكون في الكرتين الزجاجيتين أيضًا على شكل هلال وبنفس النسبة تمامًا، لو كان شكل الهلال نسبته الثمن من حجم القمر، يكون الماء في الكرة الزجاجية الثمن، وأيضًا يكون الشمس في حال حدوث ذلك للقمر؛ أما عند يوم الرابع عشر من الشهري الهجري يكون القمر مكتملًا، أيضا تمتليء الكرة الزجاجية

بالماء حتى آخرها!

أما الآن وقد سقطت طليطلة في يد (القشتاليين)، فتلك البيلتان تثيران غيظهم لأنهما تكشفان مدى براعة العرب في الهندسة، واليوم أحد رجال القشتاليين البارعين، يقول أنها صدفة غبية وليس فيها أي ذكاء ولا مهارة، وسوف يكشف ذلك أمام الجميع

كانت المفاجأة لحسام وحبيبة عند معرفة ذلك؛ أنهما وصلا الأندلس بعد سقوطها وليس أيام مجدها!

ربما هذا هو التفسير للحال السيء الذي ظهرت به الحارة وحال الصبيين فيها، ولكن لمَ يتحدثان غير العربية؟

قبل أن يسألا كانا قد وصلا الي البيلتين، وحولها الكثير من الناس، وعلى أحد الجوانب يقف بعض الجنود القشتاليين، بملابسهم الحربية ويحملون دروعهم القوية ويمسكون بالرماح الطويلة!

وقف رجل طويل أمام الكرة الزجاجية العجيبة والتي كان الماء فيه بالفعل يشبه شكل الهلال الشاحب بالنهار أعلاهم في السماء.

كانت الكرة الزجاجية مفتوحةً من أعلى، والرجل يقف على

مرتفع خرساني بجوارها ويتحدث بلغة غريبة، أخذ يوسف يترجم لهما بصوت خافت ما يقوله، كان يقول:

- لا أدري ما سر دهشتكم من هذه الكرة التي لا أرى فيها شيئًا عظيمًا، سوى أنها كبيرة وقوية الزجاج فقط!

هذا الماء فيها هو صدفة سوف أريكم أنها عادية.

نظر الرجل خلفه وطلب إناءً يمكنه المرور من الفتحة بأعلى الكرة الزجاجية، أعطاه أحدهم إناءً، دفعه إلى داخل الكرة وأخذ ينقل به الماء من الكرة الزجاجية، ويلقيه بالخارج، تخلص من أغلب الماء داخل الكرة الزجاجية، ثم نظر نحو الناس المتجمعين وهو يقهقه ويقول:

- هل قد اختفى الماء؟ هل ترونه يشبه القمر في أي شيء الآن؟

أخذ الناس يغمغمون بالكلام، وبعضهم يهز رأسه موافقًا، ولكن صاح أحدهم قائلًا:

- الماء يرتفع مرةً أخرى.

نظر القشتالي نحو الكرة الزجاجية بغيظ، وأخذ يراقب ارتفاع الماء داخلها مجددًا حتى عاد إلى منسوبه السابق تمامًا بما

يشبه مرحلة القمرا

ضغط القشتالي على أسنانه وقال:

- لا عليكم، سوف أثبت لكم بعكس ما فعلت، اذهب يا بني واملأ الإناء بالماء من النهر وناولني إياه.

أخذ الرجل يملأ كرة الزجاج بالماء مرة تلو مرة، حتى وصلت لأعلى مستوى فيها ولم تعد تشبه الهلال مطلقًا، وأخذ يتطلع نحو الماء وهو يقرب وجهه نحو الكرة الزجاجية حتى وجده ثابتًا، فاعتدل واقفًا وقهقه مجددًا وقال:

- لقد ذهبت الأسطورة، هل تيقنتم أنها صدفة الآن؟

صاح نفس الرجل قائلًا:

- ولكن الماء بدأ يتضاءل مجددًا!

التفت القشتالي نحو الكرة الزجاجية وكانت دهشته عندما وجد الماء بالفعل بدأ يتناقص حتى وصل للمستوى السابق، فصرخ غاضبًا:

- هناك حيلة من أحد الحواة هنا ليفسد علينا كل ذلك، إنه هذا الرجل الذي كان يهتف، اقبضوا عليه.

اندفع جنديان ليقبضا عليه، والرجل يصرخ ويقسم أنه لم

يفعل شيئًا، لم تتحمل حبيبة مشهد الرعب الشديد على وجهه فصاحت باللغة العربية وقالت:

- لماذا تظلمه، هو لم يفعل شيئًا لقد كان يقف معنا، ورأى مثلنا ما رأينا؟!.

صاح الرجل في دهشةٍ أخرى وقال:

- يوجد (موريسكيون) زنادقة هنا يتحدثون العربية، اقبضو عليهم!.

بدأ الناس في الجري يمينًا ويسارًا محاولين الفرار خشية أن يتم القبض عليهم، وأمسك حسام بيد حبيبة في خوف، وهو لا يدري ما الجريمة في التحدث باللغة العربية ما دامت مفهومة بينهم؟!

وقبل أن يتحرك أو ينطق حمله أحد الجنود وأمسك بيد يوسف وهو يجره معه، وحمل آخر حبيبة وأمسك بيد داوود وذهب بهما للجهة الأخرى وسط هرج كبير وصياحٍ يتردد في كل مكان.

***

في زنزانة قذرة باردة عالية الأسوار جدًا، حُبس حسام ويوسف سويًا، ولم يلتفت أحد لصرخات حسام وهو ينادي

مطالبًا أن تكون حبيبة أخته معه، أغلق الجنود باب الزنزانة وانصرفوا، وحسام يشعر بالخوف، ويوسف يبكي بجواره.

التفت إليه حسام قائلًا:

- لماذا تبكي، وما الجريمة في التحدث باللغة العربية؟

صرخ فيه يوسف قائلًا:

- انتما سبب كل البلاء، لقد حذرتكما من التحدث بها، هل أنت مجنون ولا تعلم ما هي الجريمة حقًا؟!

احتار حسام بماذا يخبره، وأخيرًا قال:

- نحن أغراب ولسنا من هذه البلدة.

لم تجف دموع يوسف ولم يهدأ بعد رد حسام وقال:

- لن تعود لبلدتك أيًا كانت سيحرقوننا أحياء حتمًا!

اتسعت عينا حسام دهشةً وخوفًا وقال:

- لماذا تقول ذلك؟ ولم تخبرني أيضًا ما جريمة اللغة العربية؟

- مَن يتحدث اللغة العربية أو يؤدي أي شعيرة من شعائر الإسلام، هو مجرم يجب تعذيبه وقتله في قانون القشتاليين، نحن نخفي الإسلام في صدورنا ولا نستطيع الجهر به.

زادت دهشة حسام وقد فهم الآن جملة جده عندما كان يقارن الفرق بين الجيوش الإسلامية وغيرها، يذكر ما حدث عند فتح مصر وغيرها من البلاد الكثيرة، كان الناس يدخلون الإسلام طواعيةً وحبًا فيه، ولم يرغمهم أي حاكم على ترك دينهم.

ولكن أن تصل عقوبة ظهور دينك الحقيقي إلى الحرق حيًا؛ هذا ظلمٌ وطغيان كبير لا يعتقد أنه يوافق أي دينٍ أو شريعة من السماء!

الآن وبما أنه جاء في توقيتٍ خاطيء وأصبح مهددًا بالحرق حيًا، ليس أمامه سوى الخروج من هذا الزمن العجيب والتاريخ السيء جدًا، حتمًا حبيبة ستفعل مثله كي تهرب من هذا الجحيم، وقف حسام بمنتصف الزنزانة وهتف قائلًا:

- العدو أمامكم والبحر خلفكم!.

ولدهشته لم يحدث شيء، وبقي في مكانه ويوسف ينظر نحوه بدهشة، كررها مرتين ولم يتم نقله لزمنه العادي في مكتبة جده السرية!

شعر بالحيرة والخوف، وأخذ يرددها مجددًا وهو يعكس الكلمات قائلًا

"البحر خلفكم والعدو أمامكم"

ولكن ظل في مكانه!

سأله يوسف قائلًا:

- لماذا تردد عبارة القائد طارق بن زياد هكذا؟

التفت إليه حسام قائلًا:

- ما هذا هل تعرفها؟

- نعم بالطبع هذه الجملة كانت سببًا في فتح الأندلس كلها، عندما وصل القائد المسلم طارق بن زياد مع جنوده في رمضان عام ٩٢ هجرية، أحرق السفن التي نقلتهم من سواحل طنجة بالمغرب، وقال لهم هذه الجملة "العدو أمامكم والبحر خلفكم".

وذلك كي يدفعهم للقتال بشجاعةٍ أكبر، الآن لم يعد لهم إلا النصر وفقط، وبالفعل حقق انتصاراتٍ كبيرة، وانضم إليه القائد موسى بن نصير في رمضان التالي عام ٩٣ هجرية، ليتم فتح الأندلس كلها، وبعد ذلك بعدة سنوات وصلت الجيوش الإسلامية إلى جنوب فرنسا، وفتحتها وكادوا ينجحون في فتح فرنسا كلها لولا الهزيمة في معركة بلاط

الشهداء.

نسي حسام الخطر الكبير الذي يهدده أمام هذه المعلومات التاريخية الجميلة والتي انتقل بالزمن ليعرفها، وسأل يوسف بلهفة قائلًا:

- جدي قال لي بأن الأندلس كانت بلادًا جميلة رائعة لا مثيل لها، هل من الممكن أن تخبرني كيف كان ذلك؟

قال يوسف بحسرة:

- أول جامعات عرفها العالم كانت الجامعات العربية في الأندلس، كل الدول المحيطة بنا وكذلك بلاد القياصرة كانوا يرسلون أولادهم للتعليم فيها، وكان أبناؤهم عندما يعودون لبلادهم يفتخرون أنهم يمكنهم التحدث باللغة العربية.

- ياللروعة! في بلادنا من يريد التفاخر يتحدث الإنجليزية!

- من أي البلاد أنت؟

- لا عليك فهي بلد بعيدة، أخبرني إذا كانت الأندلس بلد العلم، وجدي أخبرني أنها كان فيها كثير من العلماء في كل المجالات، الهندسة والفلك والكيمياء، لماذا سقطت في يد أعدائها؟

تنهد الفتى وقال:

- ما حكاه أبي لي أن ملوك طوائف الأندلس بدأت الحروب فيما بينهم، واستعان بعضهم بالقشتاليين أعدائهم، واستغل الأعداء هذه الصراعات وسعوا لإضعافهم، وبجيوش كبيرة سقطت الممالك الأندلسية واحدة تلو الأخرى، حتى سقطت غرناطة آخر الممالك الأندلسية يوم الثاني من يناير عام ١٤٩٢ ميلادية.

شعر حسام بالأسف لذلك، وجلس يتفكر، ما الذي يمكن فعله ويمكنه تغيير هذا التاريخ، ولكنه جاء بالفعل بعد السقوط النهائي ولا شيء يمكن فعله، سأل يوسف قائلًا:

- هل لأجل هذا كانت الحارة التي تقابلنا فيها بمثل القذارة التي رأيتها؟

- لقد حدثت عدة ثورات ضد القشتاليين، منها ثورة تسمي (ثورة البشرات)، وكادت أن تنجح في استعادة بعض الممالك، ولكن للأسف كان مصيرها النهائي هو الفشل، والقشتاليون يعاقبون كل من شارك في الثوارت بمنع كل شيء عنهم، وأمروا الجميع بالتحول من ديانتهم إلى المسيحية، ومن يظهر عليه أنه ما زال مسلمًا يتم قتله، من يرونه يحمل مصحفًا أو يصلي أو يصوم أو حتى يتحدث العربية يكون

مشتبهًا فيه أنه ما زال مسلمًا، ويتم تعذيبه وقتله، وعندهم محاكم اسمها "محاكم التفتيش" تقوم بالتفتيش عن أي شخص يشتبه أنه يخفي دينه، لترى هل ترك دينه أم لا!.

أدرك حسام مدى المأساة الكبيرة التي يعيشها أهل الأندلس المسلمون، ومدى صعوبة العيش في هذه الظروف القاسية، فقال ليوسف:

- وكيف تعيشون هكذا؟

- نحاول إخفاء كل شيء حتى يمكننا الهجرة إلى المغرب البلد المسلم القريب لنا.

- أتمنى لكم نجاح ذلك.

- أتمنى ذلك لأهلي، أما أنا وأنت فقد يحرقوننا غدًا!

تذكر حسام المصيبة التي هو فيها، وأن كلمة السر لا تعمل معه، فعاد إليه الخوف الشديد من جديد!.

***

وقفت حبيبة أمام أحد الرجال وهي لا تدري مَن هو، ولكن حوله حراسة كبيرة ويجلس على مقعدٍ ضخم لامع؛ يشبه العروش التي تراها في المسلسلات التاريخية، كان داوود

بجوارها يترجم لها، علمت لماذا لم يأخذوها مع حسام، ولم جاء داوود معها؛ فقد رأى الحارس أن الأمير ربما لا يرغب في قتلها بعد أن يراها لأنها جميلة، ولأن الأمير والحراس لا يعلمون اللغة العربية، تركوا داوود معها ليكون المترجم بينهم.

- كم عمرك أيتها الصغيرة؟.

- عشر سنوات ونصف

ضحك الرجل عاليًا وهو يقول لمن بجواره:

- إنها جميلة حقًا ولكن ما زالت صغيرة.

- هل نرسلها لمحكمة التفتيش؟

- لا، دعها مع الجواري لتتعلم كل شيء، حتى تكبر معنا هنا وتتغير.

هتفت حبيبة قائلة:

- لن أجلس معكم دقيقة واحدة!.

تردد داوود في الترجمة وهو خائف، ولكن صاح فيه الأمير أن يترجم ما قالت بكل دقة، فترجمها له وهو يظن بأن الأمير سيضربها ويضربه معها، ولكن الأمير ضحك عاليًا وقال:

- أحب تلك المشاكسة جدًا في هذا السن، عندما تكبر بهذه

الصفات هنا ستكون رائعةً جدًا!.

تذكرت حبيبة حديث جدها عن العبيد، ولم تتوقع أن تكون هي منهم بهذه السرعة، الآن لم تعد تريد معرفة شيء عن هذا العصر، ولن تتحمل أن تكون من هؤلاء العبيد، لم يعد أمامها إلا العودة بسرعة لمكتبة جدها، معها كلمة السر وتذكرها جيدًا، ما أسهل الهروب، لن تنتظر حتى تخلو بنفسها بعيدًا عنهم، بل ستنطق بها الآن، وبكل قوة أخذت تردد بصوتٍ عالٍ قائلة:

- العدو أمامكم والبحر خلفكم.

ولكن مثلما حدث مع حسام لم تنتقل ولم تعد لمكتبة جدها، توقعت أن الكلمة حدث بها خطأ وقامت كذلك بالتبديل لتجعلها "البحر خلفكم والعدو أمامكم" ولكن ظلت كما هي!

انعقد حاجباها في غضب وهي تحاول تذكر كلمات الصوت العميق الذي أخبرهم بكلمة السر، وتألقت عيناها عندما تذكرت الصوت العميق عندما قال:

- تذكروا مثل كل مرة؛ يجب أن ترددوها سويًا في حال طلب العودة.

كلمة السر يجب أن ترددها مع حسام وليس وحدها!

ماذا تفعل الآن وحسام ليس معها؟

وقبل أن تفعل أي شيء وجدت الأمير وقف غاضبًا وصاح قائلًا:

- هذه الفتاة ليست عادية، يبدو أنها تربت في بيت للمقاتلين العرب، ليس هناك من يذكر هذه الجملة لقائدهم طارق بن زياد إلا المقاتلون فقط!

تألقت عينا حبيبة بالذكاء الشديد، وقد علمت الخطة التي ستدفعهم لجعلها مع أخيها حسام، ولكن نظرت نحو داوود المسكين والذي يبدو عليه الفقر والعذاب في حياته، وقد علمت منه أثناء سيرهم إلى هذا القصر؛ أنه وأسرته وكذلك أسرة يوسف يحلمون بالهجرة إلى المغرب، فقررت أن تجعل الخطة تشملهما كذلك.

فجأة أخذت حبيبة تبكي وتصرخ وتقول:

- أرجوك سيدي لا تقتلني وسوف أخبرك أين يختبيء كل المقاتلين العرب الذين أعرفهم.

تألقت عينا الأمير وقال:

- يبدو أننا وقعنا على صيدٍ ثمين هذه المرة، من كان يتخيل أن طفلة كهذه تعرف كل ذلك، ولكنهم العرب الأوغاد يربون

صغارهم على الشدائد ليكونوا فرسانًا في سن مبكرة!

- سوف أخبرك سيدي عن عشرين فارسًا معهم الكثير من السلاح، ويعدون خطة للهجوم بعد أسبوع ولكن بشرط.

ضاقت عينا الأمير وهو يسأل عن هذا الشرط، فقالت برجاء شديد وهي تبكي:

- أن تنقذ أخي حسام من القتل، وليكن من العبيد معي هنا في القصر.

ضحك الأمير عاليًا وهو يرى الشرط تافهًا وقال:

- لك هذا.

- وأيضا داوود ويوسف لا ذنب لهما في شيء، لقد ألقيتهما في طريقي إلى البيلتين، وحظهما أنهما كانا بجوارنا ويترجمون لنا فقط، هل تسمح لأسرتهما بالسفر إلى المغرب.

صرخ الأمير قائلًا:

- هذه لن أسمح بها.

وضعت حبيبة يديها في وسطها وقالت بعناد شديد:

- حسنا لن أتكلم بحرف وسترى، أنا وأخي معك وسوف نخبرك بكثير من الأسرار، ماذا تريد من يوسف وداوود،

يمكنك جلب الكثير من المترجمين غيرهما.

ضحك الأمير وقال:

- لولا أني أحب صفة العناد والمشاكسة هذه فيك ما استجبت لك، حسنًا موافق.

ابتسمت حبيبة وقالت:

- بعد سفر أسرتي يوسف وداوود ومجيء أخي أمامي استعد لما ستعرف.

كان داوود غير مصدق ويكاد يطير من الفرحة عندما قال الأمير:

- ساعتان فقط وسيكون جوزيف وديفيد عند الحدود.

***

خرج الجد بهدوء من باب المنزل ليذهب إلى صلاة المغرب بالمسجد، وبينما هو يسير بخطوات بطيئة كان (فارس) ومعه (هادي) ينظران إليه وينتظران ابتعاده، قال هادي:

- ماذا سنفعل الآن؟

قال فارس بصوت خافت:

- قلت لك هناك سرّ كبير ويجب مراقبتهما، هل يعقل أن الجد

يذهب إلى الصلاة ويتركهما، على الأقل كان حسام سيذهب ليصلي معه، هناك شيءٌ مريب بالداخل يجب أن نعرفه.

- وكيف هذا؟

- تعالَ معي.

طرق فارس الباب وفتحت له المدبرة فابتسم لها وقال:

- الجد يقول لك أننا سنكون مع حسام وحبيبة.

قالت المدبرة بهدوء:

- تفضلا

دخل فارس وهادي وهما ينظران بحثًا عن حسام وحبيبة ولكن المدبرة قالت:

- ستصعدان هذا السلم إلى السطح وهناك غرفة كبيرة في مواجهة السلم، ادخلا منها إلى المكتبة السرية في آخر يمينها.

برقت عينا فارس بقوة وهو ينظر نحو هادي، بعد أن سمع كلمة "المكتبة السرية"، وانطلقا مسرعين صاعدين لأعلى.

وقفا أمام الغرفة المليئة بالأتربة مندهشين وقال هادي:

- ما هذا حتمًا ليسا بالداخل!

قال فارس بإصرار:

- المدبرة قالت بالداخل مكتبة أخرى، لا أدري لم يتركون هذه الغرفة قذرة هكذا؟!

دخلا حتى وصلا لباب المكتبة، وفتحاه ووقفا مذهولين متسعي الأعين؛ فقد كان حسام وحبيبة نائمين على مقعدين، وأمامهما صندوق قديم يخرج منعه ضوءٌ أزرق يغطي وجه حسام وحبيبة في مشهدٍ عجيب جدًا، وهناك صوتٌ خافت غريب يأتي من داخل الصندوق، ارتعد شادي وقال:

- ما هذا؟ هل ماتا؟

تردد فارس قليلًا وهو لا يدري ماذا يفعل، وتذكر أن الجد قد يعود بسرعة لأن صلاة المغرب ثلاث ركعات فقط، فقال لشادي:

- لقد علمنا أنّ هناك سرًا كبيرًا هنا، هيا ننصرف الآن وسوف نفكر فيما بعد ماذا نفعل معهما.

ارتاح شادي لهذا الاقتراح وانطلقا مسرعين حتى خرجا من المنزل.

***

قدم الجد مشروب الحليب بالشيكولاتة لحسام وحبيبة وهو يضحك قائلًا:

- يالها من مغامرة، أنا سعيد جدًا بشجاعتكما.

نظر حسام نحو أخته حبيبة بإعجاب وحب وهو يقول:

- لولا ذكاء حبيبة ما نجونا، كانت ستصير من العبيد وأنا يحرقونني حيًا!

ضحكت حبيبة وقالت:

- عندما رأيت حسام واحتضنته وهمست في أذنه أننا سننطق كلمة السر سويًا بسرعة، وهتفنا بها والأمير ينظر حوله بخوف ويظن أن هناك هجوم بعد هتافنا، كنت أتمنى البقاء قليلًا لأستمتع بخوفه هذا.

قال حسام مازحًا مع حبيبة:

- لقد تعلمت يا حبيبة كيف تخدعين أعداءك، ولم يعد من السهل الوقوع وكشف الأسرار بعد ذلك.

قالت حبيبة بسعادة:

- فعلًا مواجهة الخطر تعلمنا الكثير، كنت أعرف أنه يجوز الكذب على الأعداء عند مواجهة الخطر لأجل النجاة.

نظر حسام نحو جده وقال في اهتمام:

- هل لو احترقتُ وأنا هناك يا جدي، ماذا سيحدث لي هنا؟

قال الجد باهتمام:

- في حلمك العادي لو رأيت أنك تسقط من فوق عمارة، من رحمة الله أنك تستيقظ قبل ارتطامك بالأرض، هناك أقوال بأنّ الارتطام لو حدث في حلمك قد يسبب الوفاة بالفعل ربما بسكتة قلبية.

إجابة سؤالك أنه قد يحدث ذلك أيضًا؛ وفاة للجسد الموجود هنا.

- إذن يجب السعي للنجاة دائمًا هناك، وعدم الوقوع في مآزق كبرى.

- نعم بالفعل.

قالت حبيبة باهتمام أيضًا:

- أول مرة أعرف قصة البيلتين هاتين يا جدي، هل كانتا حقيقتين؟

- نعم بالفعل كانتا من عجائب الهندسة البارعة التي لم يُعرف سرُّها أبدًا، فهذا المخبول بعد فشله أمامكما ذهب وخلعهما

للدراسة ومعرفة السن، ولم يعرف شيئًا، وعندما حاول تركيبهما مجددًا فشل واختفوا تمامًا بعدها.

قال حسام:

- حزين يا جدي لضياع علم كهذا.

- للأسف يا حسام، القشتاليون بعد انتصارهم حرقوا مليونًا ونصف المليون مجلد من العلم الذي كتبه علماء الأندلس العرب، حتى أن أحد الفائزين بجائزة نوبل قال:

"لدينا ثلاثون كتابًا بقيت من الأندلس المسلمة، وهذا مكننا من تقسيم الذرة، لو بقي نصف المليون من الكتب التي أحرقت لكنا الآن نسافر بين المجرات".

- لقد حصلنا على معلوماتٍ كثيرة جدًا لم نعرفها من قبل، أعتقد البحث مع فارس حتمًا سيفوز بالجائزة الأولى.

ابتسم الجد وقال:

- سعيد أنكم تعرفون كل ذلك الآن.

[تمت بحمد الله]

أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة
والنادرة والجديدة

مكتبة بيت الحصريات أسم على مسمى